مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١٠، العدد ٤، شتاء ١٤٣٦ هـ
صفحة ٥٣٣- ٥٦٣

ملامح الاغتراب في شعر أحمد الصافي النجفي

سيد عدنان أشكوري*

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الخوارزمي

(تاريخ الاستلام:١٤٣٥/٨/٢٢؛ تاريخ القبول: ٢٢/ ٢ /١٤٣٦)

الملخّص

الاغتراب ظاهرة قديمة طفحت على الشعر العربي منذ أقدم عصوره، وقد تناولها النقّاد بالبحث منذ عصورهم الأولى، وكتبوا عنها الكثير؛ إلاّ أنّها برزت في الآونة الأخيرة واشتدّ ظهورها في الأدب العربي المعاصر. وذلك لما لها من ارتباط مباشر بقضايا المجتمع السياسية والاجتماعية. وللاغتراب أسباب وتداعيات عديدة جعلت الشاعر العربي يجنح نحو الرمزية واستخدام لغة الغموض في الشعر ليعبّر بغربته عن تلك الأسباب. ولا يعني ذلك أنّ من اتّسم شعره بالوضوح وأفصح عمّا يعتلج في صدره من شعور بالغربة ليس بمغترب. ومن هؤلاء، الشاعر العراقي الفقيد أحمد الصافي النجفي الذي يعدّ شعره الغزير موسوعة في شتى الموضوعات، إضافة إلى بروز الطابع الوجداني الشديد عليه. حاولت هذه الدراسة أن تسلّط الأضواء على ملامح الغربة في شعر الصافي النجفي، بعد أن تناولت الاغتراب وأسبابه وتداعياته وأنواعه بالبحث؛ حيث كان الشاعر معروفاً بابتعاده عن وطنه ومنطوياً على ذاته وذا نمط تفكيري مختلف عن سائر أقرانه ومعاصريه من الشعراء. وقد خلصت الدراسة في نهاية المطاف إلى أنّ الصافي كان يعاني الاغتراب بمختلف أنواعه ومدلولاته وقد اقترن ذلك الاغتراب بالعصامية الفذّة التي تحلّى بها الشاعر طيلة حياته.

الكلمات الرئيسية

الصافي النجفي، الاغتراب، الشعر العربي المعاصر، الشعر الوجداني.

---

* الكاتب المسؤول
Email: eshkevari@khu.ac.ir

مقدمة

أهميّة البحث

يعدّ الصافي واحداً من أساطين الشعر العراقي في القرن العشرين الذين لم ينالوا حظّهم من دراسات الأدب والنقد بما فيه الكفاية. خاصّة أنّ شعره امتاز بالطابع الموسوعي فتناول موضوعات عديدة تنمّ عن فلسفة تأملية من نمط سامٍ قلّ أن نجد له نظيراً في الأدب المعاصر. وإنّ مجرد البحث عن مفهوم الاغتراب في شعر الصافي يمهّد السبيل لدراسات تالية تكشف عن أبعاد أخرى مغمورة من شعر الصافي النجفي. فضلاً عن هذا فإنّ موضوع الاغتراب في الأدب بدأ يكتسب مكانة ذات بالٍ في الدراسات المعاصرة خاصّة في التحليل السيكولوجي للأدب.

هدف البحث

إنّ الحديث عن الاغتراب وأنواعه وأسبابه وتداعياته ذو صلة مباشرة بموضوع بحثنا هذا إلاّ أنّ المجال لا يسعنا لنتحدث عنه بالتفصيل فاكتفينا بنتف من عيون الشعر العربي، وقد تناولته دراسات مختلفة بالبحث والمناقشة. ولذلك فإنّ دراستنا تسعى لتجيب عن الأسئلة الآتية من خلال نظرة سريعة وعابرة إلى مفهوم الاغتراب وتداعياته:

- ما هي أنواع الاغتراب وأسبابه؟
- ما هي أنواع الاغتراب التي عاشها أحمد الصافي النجفي وأيّ منها كان أجلى في شعره؟
- كيف عوّض الصافي عن اغترابه ونفّس عن كربته؟

خلفيات البحث

إنّ الدراسات التي تناولت الصافي النجفي وشعره ليست بقليلة، إلاّ أنّها شُغلت بجوانب مختلفة من حياته وشعره، ولم تتحدّث عن ظاهرة الاغتراب لديه إلاّ بشكل عابر. فعلى سبيل المثال ألّف عنه خليل برهومي كتاباً تحت عنوان "أحمد الصافي النجفي شاعر الغربة والألم" تحدّث فيه عن غربة الشاعر بشكل مقتضب للغاية. وقد استشهد الكاتب يحيى الجبوري في كتاب "الحنين والغربة في الشعر العربي" ببعض الأبيات للصافي ليذكر أنّه خاض في وادي

الغربة كمن سبقه من الشعراء العرب. وأمّا فيما يخصّ الاغتراب فإنّه مبحث وسيع تناولته دراسات مختلفة أشرنا إلى أهمّها في طيّات البحث.

أسلوب البحث

اعتمد منهج البحث على تحليل المضمون حيث قام بدراسة عامّة لدواوين الشاعر واستقراء الأبيات الدالّة على اغتراب الشاعر وتصنيفها بحسب أنواع الاغتراب وتحليلها تحليلاً نفسياً.

مدخل إلى مبحث الاغتراب وخلفيته في الأدب العربي

ليست ظاهرة الاغتراب حديثة، فهي تمسّ النفس الإنسانية وتشوب العلاقات الاجتماعية منذ أن عاش الإنسان اجتماعياً. والحديث عن الاغتراب ليس جديداً أيضاً، إذ تناوله الكثير من المفكّرين القدامى، سواء في الأدب أو في سائر مجالات العلوم الإنسانية. أمّا في اللغة فقد جاءت في المصادر اللغوية معانٍ شتّى للاغتراب: «واغْتَرَبَ الرجلُ: نَكَحَ في الغرائب، وتَزَوَّجَ إلى غير أقاربه. وفي الحديث: اغْتَرِبُوا لا تُضَوُّوا أي لا يتزوّج الرجلُ القرابةَ القريبةَ فيجيءَ ولدُه ضاوياً [أي ضعيفاً دقيق العظم هزيلاً]. والاغتراب: افتعال من الغُربة؛ أراد تَزَوَّجوا إلى الغرائب من النساء غير الأقارب، فإنّه أَنْجَبُ للأولاد» (ابن منظور، دون تا، مادة غرب). وجاء في المعجم الوسيط: «أمّا الاغتراب فهو مصدر اِغْتَرَبَ يَغْتَرِبُ من باب الافتعال وهو بمعنى نَزَحَ عن الوطن واِحْتَدَّ ونَشِطَ. واِغْتَرَبَ فلانٌ: تَزَوَّجَ في غير الأقارب» (أنيس وآخرون، دون تا، مادة غرب). وأمّا في المفهوم فقد اتّخذ المصطلح معاني شتّى أفقدته أطره التحديدية. وقد أمعن الفلاسفة ومفكّرو علم الاجتماع الغربيّون في المصطلح فقادتهم تأملاتهم إلى إعطاء مفاهيم معقّدة عنه تكاد تجمع كلّها على سلبية الظاهرة (للمزيد راجع: شاخت، ١٩٨٠؛ برزگران، ١٣٧٠؛ ومجموعة الأبحاث التي نشرتها مجلة عالم الفكر تحت عنوان مشكلة الاغتراب في مجلدها العاشر الصادر في عام ١٩٧٩م). وعلى النقيض فقد اعتبر الفكر الشرقي المتّصل بالتصوّر الإسلامي ظاهرة الاغتراب إيجابية وحثّ عليها أحياناً من دون الخروج عن الوسطية والتطرّف فيها. ومن ذلك الحديث المشهور عن رسول الله ﷺ: «إنّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء» (للمزيد راجع: خليف، ١٩٧٩). ولهذه السعة في المفهوم التي لا يمكن الإلمام بها في دراسة مقتضبة كهذه، نكتفي بتعريف جامع لهذه التعاريف ونقول: «إنّ الاغتراب هو الانسلاخ عن المجتمع، والعزلة أو الانعزال، والعجز عن التلاؤم، والإخفاق في التكيّف مع

الأوضاع السائدة في المجتمع، واللامبالاة، وعدم الشعور بالانتماء، وانعدام الشعور بمغزى الحياة، والإحباط والوحدة والتشاؤم والكآبة» (دواليبي، ٢٠٠٣، ص١٤).

وقد ظهر الاغتراب في سائر مراحل الأدب العربي بأنماطه المختلفة. ففي العهد الجاهلي هام امرؤ القيس شريداً يبحث عمّن يستعين به في استرداد ملك أبيه والأخذ بثأره، حتى وصل إلى بلاد الروم في قصته المشهورة، وهناك أحسّ بقرب منيّته بعد أن امتلأ جسمه بالقروح، فرويت له أبيات تفيض لوعة ووحشة يقول فيها:

أجارتَنا إنّا غريبانِ هاهنا ... و كلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ

(الإصبهاني، ١٤١٥، ج٩، ص٧٠)

ومحاولة التخلّص الوحيدة التي يملكها الجاهلي إزاء هذه الغربة ، هي ركوب ناقته ليرحل فينسى كما يقول طرفة :

وإنّي لأُمْضِي الهَمَّ عِندَ احتضارِهِ ... بِعَوْجاءَ مِرْقالٍ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي

(البستاني، ١٩٩٣، ج١، ص٥٨)

وذاك الشنفرى يطالعنا في لاميّته المشهورة بأبيات اغتراب يبيّن فيها توقه لاعتزال قومه:

أقيموا بني أُمّي صدور مطيّكم ... فإنّي إلى قومٍ سواكم لأمْيَلُ

(إبراهيم، ١٩٨٨، ص١٢)

وفي العصر الإسلاميّ تطالعنا غربات كثيرة منها قول أبي دهبل الجمحي الذي رحل إلى الريّ فقال في حنينه إلى دياره وعشيرته وأولاده:

أفي كلِّ عامٍ غربةٌ ونزوحُ ... أما للنّوى من ونيةٍ فتُريحُ
وأرّقني بالريّ نوحُ حمامةٍ ... فَنُحْتُ وذو البثّ الغريبُ ينوحُ

(الجبوري، ٢٠٠٨، ص٥٤)

وفي العصر العبّاسي حنّ كثير من الشعراء إلى بلادهم نذكر منهم سفيان بن عيينة الهلالي على سبيل المثال لا الحصر:

جسمي معي غير أنّ الروحَ عندكمُ ... فالجسم في غربةٍ والروحُ في الوطنِ
فليعجَبِ الناسُ منّي أنّ لي بدَناً ... لا روحَ فيه ولي روحٌ بلا بدَنِ

(الجبوري، ٢٠٠٨، ص١٠٧)

ولقد جرّب كلّ من أبي تمام والبحتري وابن الرومي اغترابات عديدة كان منشأها النزوح عن الوطن أو الامتهان الاجتماعي أو أسباب أخرى وقد عاش المتنبي الاغتراب بأنواعه «فلا

شك أنّنا نلاحظ في شعر المتنبّي تطوّراً لمفهوم الوطن يقترب من بعض مفاهيمنا المعاصرة ، عندما يقول : "وكلّ مكان يُنبت العزَّ طيّبٌ" فلم يعد مفهومه محدوداً بقطعة الأرض التي يولد فيها ، ما لم تكن منبتاً للعزّ» (زامل، ٢٠٠٣، ص٦١). وقد بلغ اغتراب المتنبي القمة بقوله :

بم التعلُّـــلُ لا أهْـــلٌ ولا وَطَـــنٌ ولا نـــديمٌ ولا كـــأسٌ ولا سَـــكنُ
أُريـــدُ مِـــنْ زَمَـــني ذا أن يُبَلِّغَنِـــي مـــا لَـيس يَبْلُغُـهُ مِـن نَفْسِـهِ الـزَّمَنُ

(البرقوقي، ٢٠٠٦، ج٢، ص٤٦٧)

ولو شئنا أن نتوسّع في اغترابات شعراء العربية لخرجنا بسفر جليل، ولذا فإنّا نطوي عنه كشحاً ونرجع القارئ المحترم إلى كتاب الحنين إلى الأوطان للجاحظ وكتاب الحنين والغربة في الشعر العربي للدكتور يحيي الجبوري. أمّا عصرنا الحاضر فإنّه مليء بحالات الاغتراب التي لها أسبابها المختلفة في البلاد العربية، مثل: ١. التجزئة والتفتّت الاجتماعي. ٢. هيمنة الدولة على المجتمع وأزمة المجتمع المدني. ٣. تسلط الأنظمة الاجتماعية القسرية. ٤. الاستغلال الطبقي والظلم والحرمان والقهر ووجود فجوات عميقة بين الضعفاء والفقراء من ناحية والأقوياء والأغنياء من ناحية أخرى. ٥. التبعية والسيطرة الخارجية على الموارد العربية بالتحالف مع الحكام والطبقات المهيمنة. ٦. طقوسية الماضوية وثباتها، والصراع بين القديم والجديد (بركات، ٢٠٠٦، ص٦٠). فصار من الصعب العثور على شاعر معاصر لا ينعى غربته. وما دراستنا هذه إلّا لشاعر معاصر طفحت ظاهرة الاغتراب في شعره.

نبذة يسيرة عن حياة الصافي النجفي

ولد السيّد أحمد الصافي النجفي الموسوي في عام ١٨٩٧م في مدينة النجف بجنوبي العراق (برهومي، ١٩٩٣، ص١٣) والنجف مدينة تقع في ظاهر الكوفة، ضمّت مرقد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام واشتهرت على مدى القرون العشرة الأخيرة بكونها مركزاً علمياً يؤمّه طلاب العلوم الدينية من شتى أرجاء العالم الإسلامي. وقد عرفت أيضاً باحتوائها للأوساط الأدبية الواسعة وتخريجها عدداً لا بأس به من الشعراء والأدباء الذين يكوّنون وزناً ثقيلاً في تاريخ الأدب العربي المعاصر في العراق (شرارة، ١٩٨١، صص٦-٧). وقد عرفت مدينة النجف بمقبرتها الكبيرة التي تعدّ أكبر جبانة في العالم نظراً لاعتقاد الشيعة بقداسة تربتها وفضيلة الدفن في رموسها (محبوبة، ١٩٨٦، ج١، ص١٤). وقد نهل الصافي العلم من الأوساط الأدبية التي حفلت بها مدينة النجف، إلاّ أنّ مرضه الشديد الذي ظلّ يلازمه طيلة حياته حال دون

إكمال شوطه العلمي، فبدأ يثقّف نفسه بنفسه وذلك من خلال مطالعاته لكتب الأدب ودواوين الشعراء (المعوّش، ٢٠٠٦، ص٣٠). لكنّ الشاعر يوحي في شعره وكأنّ الله حباه بقدرة فائقة وأنّه وُلد والعبقرية ترافقه.

نــــــــوراً رأى الجـــــــيرانُ في	بــــــيتي عشـــــيّةَ مولـــــدي
هــــــذي روايـــــة أســــرتي	آمِـــــنْ بهـــــا أو فَاجْحَــــدِ

(الصافي النجفي، ١٩٧٧، ص٤٠)

شارك أحمد الصافي في الحركة المقاوِمة للاستعمار البريطاني عام ١٩١٩م وكان بيته موئلاً للثوّار يعقدون فيه اجتماعاتهم ولقاءاتهم وكثيراً ما كان الشاعر الشابّ يلقي على مسامعهم قصائده الحماسية النارية ليبثّ في نفوسهم روح العزيمة والإقدام (برهومي، ١٩٩٣، ص١٧). لكنّ المقاومة لم يكتب لها النصر فنصبت أعواد المشانق وأعدم الكثير من المقاومين والمحرّضين، وسعت سلطات الاحتلال في طلب من فرّ بجلدته (الخاقاني، ١٤٠٨، ص٢٧٦). وكان الصافي واحداً من أولئك اللاجئين إلى إيران فوصل إلى طهران بعد معاناة شديدة وعاش فيها قرابة ثمانية أعوام تعرّف فيها إلى كبار الأدب الفارسي من أمثال ملك الشعراء بهار وغيرهم، وكانت حصيلة هذه الإقامة تعريبه لرباعيات الخيام التي عرفت بكونها أكثر التعاريب مطابقة للنصّ الفارسي (اشكوري، ١٣٧٧، ص٨٨).

وبعد عودته من طهران بقي الصافي في النجف لسنتين أو أكثر فعادت الأمراض وداهمت جسمه فنصح له الطبيب بمغادرة العراق والسفر إلى مصائف سورية ولبنان (برهومي، ١٩٩٣، ص٢٤). وذكرت بعض المصادر أنّ الصافي كان بصدد طباعة تعريبه لرباعيات الخيام بعد أن لم يجد في العراق من يتصدّى لذلك (الخليلي، ٢٠٠٩، ج٦، ص٥٧٩). لكنّ قصيدة في ديوانه الأخير عنوانها «شهادة أخي» تشير إلى خلاف نشب بينه وبين أخيه الأوسط محمّد أمين الصافي جعله يفضّل الرحيل على البقاء في مسقط رأسه:

وكـــــان أخٌ لي كــــثيرُ الجــــدال	يــــرى كــــلَّ مــــا قلتُــــهُ محتقَـــرْ
رضــــى النــــاس في رأيــــه ميــــزةٌ	وأنْ تغتــــدي بيــــنَهمْ مُشــــتَهرْ
وعنـدي رضـى الـنفس أسمـى الأمـور	لأنّ ضــــميري بــــه قــــد أمَــــرْ

(الصافي النجفي، ١٩٧٧، ص٥٧)

وبقي الصافي يجول بين مدن سورية ولبنان لمدّة أربعين عاماً لا يستقرّ في مدينة إلاّ ويغادرها يؤمّ أخرى، وقد رافق تلك الرحلةَ الطويلة اغترابٌ قليل النظير. ولم يعد إلى العراق

إلاّ بعد أنْ أصيب برصاصات طائشة أيام الحرب الداخلية في بيروت عام ١٩٧٦م (شرارة، ١٩٨١، ص٢٢). وعندما عاد إلى بغداد كان قد فقد بصره فأنشد بيته المعروف :

يـــا عـــودةً للـــدارِ مـــا أقْســـاها أسمَـــــعُ بغـــــدادَ ولا أراهـــــا

(برهومي، ١٩٩٣، ص٣٠)

وقد ترك مجموعة من الدواوين الشعرية بلغت خمسة عشر ديواناً، عُني بطبع الخمسة الأخيرة منها الدكتور جلال الخياط فظهرت في ديوان واحد وذلك بعد شهرين من وفاة الشاعر في عام ١٩٧٧م.

شاعرية الصافي

لقد كان الصافي وكما سنبحث في اغترابه الشعري يعتقد أنّه وحيد زمانه في الشعر، وكان يعتقد أنّه أشعر الناس على الإطلاق. والسبب في ذلك أنّه لم يكن يعير للألفاظ أدنى أهمّية في الشعر. فهو شاعر المعاني لا شاعر المباني. ولأنّه كان كثير التأمّل في الآفاق وفي نفسه فقد جاء شعره صورة لحياته المشوّشة والمضطربة. وكان يصرّ على عدم تنقيح شعره بل الإبقاء على مقطوعاته الشعرية كما كانت لأنّه يرى في معانيها غاية الابتكار والإبداع (الصافي النجفي، ١٩٧٧، ص١٠). «ولم يكن ليحفل قطّ إلاّ بمعانيه التي يفاخر بأنّها معانٍ بكر، وبشعوره الذي يعتبره شعلة الشاعرية وجذوتها ونارها. يقول في ذلك:

في الـنظمِ مـن نـار الشـعور شـرارةٌ تبـــدو ومنـــها في الخيـــال شـــواظُ
أهــوى الشــعور مــن الكــلام مجــرّداً إنّ الشـــــعور قبـــــورُهُ الألفـــــاظُ

وأبغض ما يبغض الصافي هو تزيين ألفاظه وتنميقها بالعبارات المنمّقة المزخرفة، ويعتبر أنّ هذا العمل عمل أنثوي ناقص يجب أن يبتعد عنه الشاعر قدر الاستطاعة، يقول:

في شـــعر بعـــضِ النـــاظمين أنوثـــةٌ تســـــعى إلى الأصـــــباغ والتلـــــوينِ
شــعري حــوى مثلــي جمــالَ رجولــةٍ ولـــــذاك لا يهـــــتمّ بـــــالتزيينِ»

(برهومي، ١٩٩٣، صص١٣٤-١٣٥)

ومن هنا فإنّ شعر الصافي «يتميّز... ببساطة شديدة في الأسلوب وبلغة شعرية كثيراً ما تقترب من الكلام السائر. وهو إذ يتأمّل الحياة يكشف عن وعي مباشر ليس فقط بالمشهد الوطني والاجتماعي حوله، وهو ما اقتصر عليه كثير من معاصريه من الشعراء، بل يعكس أيضاً وعياً بالحياة من حوله، وهو إنجاز أكثر صعوبة. فقد استطاع أن يعالج المواضيع

العادّية في الحياة اليومية من دون أن يتعثّر ... وإذ يعرض الصافي لأنواع شتّى من التجارب يعطي انطباعاً عن رجل بالغ الانشغال بصراع مكشوف ضدّ المفاسد، والحقارة، والخسّة، والمعايب، والخمول، والنفاق، والجهل، والجشع، والفجاجة، والفوضى والسياسة الغوغائيّة في حياة العرب اليومية من حوله. وهو في وصفه هذه المثالب وسواها يفلح في استدعاء نوع من الدعابة المتحفّظة، ويحدّد الصورة غالباً بتفصيلات دقيقة، وقد يدخل في جدل مع الأشياء التي يكتب عنها ويسخر منها، وقد يؤنّبها بشدة أحياناً، ولكنّه لا يقف موقف الواعظ إطلاقاً، وهذا إنجاز شعري أكيد» (الخضراء الجيوسي، ٢٠٠٧، صص٢٥٩-٢٦٠).

وكما رأينا فإنّ حياته كانت مشوّشة لا استقرار فيها، لكثرة أسفاره وابتعاده عن وطنه وبيئته التي ترعرع فيها. ولقد كانت حياته بالإضافة إلى ذلك مفعمة بالغرابة والغربة بشتى أنواعها. ممّا ترك بصمات واضحة على شعره ونمط تفكيره وأسلوب تعامله مع الآخرين. ولأنّ الشاعر كان غزير الشعر ووظّف حياته كلّها لإنشاده، فإنّ شعره كان بحقّ موسوعة لأنواع الموضوعات الحديثة التي لم يسبقه أحد في التطرّق إليها. فشعره حافل بالآراء السياسية والاجتماعية والعلمية والوجدانية وغيرها من القضايا التي تخطر أو لا تخطر ببال الإنسان. إذ يمكن القول مع شيء من الحيطة والحذر إنّه لم يترك باباً من أبواب الحياة إلاّ وتناوله بشعره وأبدى رأيه فيه. ممّا جعل كثيراً من النقّاد يذهبون إلى أنّه «ليس بمقلّد ولا مجدّد وهو ليس بقديم أو محدث ولا يمكن أن ينضوي تحت لواء هذه المدرسة أو تلك، هو شاعر وفارس أو شيء مابين هذا وذاك... وهنا تكمن أهمّيته الأدبية [وهو رجل] له قدر من الشجاعة استطاع به أن يتحدّى عصره بطريقته الخاصّة، وأن يجوب في مفازات غريبة غير مطروقة» (الخياط، ١٩٧٠، ص٧٨). ويرى الدكتور جلال الخياط أنّ قيمة الصافي تكمن في جدة الموضوعات التي تطرّق إليها وغرابتها، كالحيوانات، وزيّه التقليدي، والاعتداد المفرط بالنفس، والفقر، والإعراض عن النساء، وهجاء عمّال المطابع والمصحّحين لكثرة الأخطاء المطبعية في دواوينه، ووصف الحلاق وهو يقصّ له شعره، ورثاء لحيته، ووصف البرلمانات، والإشادة بملك بريطانيا الذي تخلّى عن العرش في سبيل الزواج ممن يحبّ وما إلى ذلك من موضوعات أخرى (للمزيد راجع: الخياط، ١٩٧٠، صص٧٨-٨٩). وشعر الصافي لا يقوم في جوهره على موسيقى اللغة وروعة بيانها وجرس ألفاظها، وظلال الفروق بين معاني المترادفات الكثيرة في مفرداتها، وإنّما يستلّ عذوبته، أو جودته على التحقيق من قوة الأحاسيس التي يحاول التعبير عنها، ووضوح الأفكار التي يعرضها، وصفاء الجوّ الروحي الذي يصدر عنه،

ووساطة الموضوعات التي يتناولها، وتلك هي الميزة الحقيقية التي يتميّز بها شعره عن سائر أشعار العرب القدامى والمحدثين. كان الصافي ذا روح مرحة يفضّل استخدام الدعابة والطرافة لبيان ما يعتلج في صدره. ولا يعني ذلك أنّ شعره خالٍ من مسحة الحزن والكآبة.

ملامح الاغتراب في شعر الصافي النجفي

أ) الاغتراب المكاني

نقصد بالاغتراب المكاني هنا بُعدَ الشاعر عن وطنه وحنينه إليه. ولعلّ هذا النمط من الاغتراب هو أشهرها وأكثرها ظهوراً في تاريخ الأدب العربي. إلاّ أنّ الصافي وكما أشرنا سلفاً تعمّد النأيَ عن بلده، واتخذ سبيل الاغتراب طوعاً ويؤيّد ذلك وجود بعض الأبيات الدالّة على كراهيته لمسقط رأسه والاستهزاء بمدينة النجف بأسلوب ساخر حيث يشير إلى استقبال النجف للأموات وعيش بعض أهلها على مهنة تجهيز الموتى:

في بلاد الورى حياةٌ ولكنْ ... في بلادي مظاهرٌ للممات
بعضُ سكان بلدتي مثلُ دودٍ ... عائشٌ دائماً على الأموات

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٣٧)

إلاّ أنّ ذلك يكاد لا يكون إلاّ نزراً يسيراً من بحر شعره الزاخر الذي لا يخلو من أبيات الحنين إلى الوطن والعودة إلى الديار. فقد عاش الصافي حياة بؤس وحرمان وتشرّد، فقال وهو في الشام:

أنا في الشام أحسُّ غربة أوجهٍ ... ماذا أقول إذا رجعتُ لداري
يتم الرجوع لموطنٍ منه اختفى ... ما فيه من دارٍ ومن ديّارِ

(الجبوري، ٢٠٠٨، ص٢٢٨)

فهو يرغب في العودة إلى الوطن لكن أنّى له ذلك وقد طالت غربته فلم يعد له في الوطن من بيت ولا من أهل ينتظرون عودته. وقد تاق للعودة لأرض العراق لولا أسقامه التي كانت تحتّم عليه البقاء في الشام:

في الشامِ لم أسكنْ وربِّك لحظةً ... لو لم تُقَيِّدْني بها أسقامي
رَبَطُوا بتربتِها جذورَك مثلَما ... ربَطَ السقامُ بأرضِها أقدامي

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ ب، ص١٧٥)

ويقول واصفاً شدّة تحمّله آلام الغربة باكياً يحنّ للأهل والوطن ويبيّن كيف أنّ إناء

صبره لم يعد يسع الاحتمال أكثر من هذا:

جُـــرْحُ التغـــرّبِ في فـــؤادي بـــالغٌ ... أُلقـــي عليـــه بَلْسَـــمَ النِّســـيانِ
فتَفَجَّـــرَ النســـيانُ عنـــهُ وأصـــبَحَتْ ... للجُـــرحِ تهمـــلُ بالدِّمـــا عينـــانِ

(الجبوري، ٢٠٠٨، ص٢٢٩)

إلاّ أنّ الصافي لا يسلم النفس للنائبات، فظلّ يعاني صراعاً عنيفاً بين الإصغاء لنداء الحنين أو الانصياع لعزيمته التي لا تلين:

وكـم مـن جـروحٍ في فـؤادي تغلغلـتْ ... أرومُ البكـا منـها فأخجـلُ مـن عزمـي
وأعمـقُ جـرحٍ فيـه جُـرحُ تَغَـرُّبٍ ... يحـنُّ لـداري دائبـاً وبـني أمّـي

(الجبوري، ٢٠٠٨، ص٢٢٩)

والصافي شاعر الطبيعة يميل إليها حيث كانت، ولا تفتأ الطبيعة الخلاّبة بصيدا في لبنان تذكره بطبيعة العراق ونخيله، حتى ليكاد يدخل أحد البساتين آملاً في أن يجد فيه أهله وأحبابه:

يـا نخـلَ صـيداءَ لي هيّجْـتَ أشـجانا ... ذكـرتَ مـن وطـني أهـلاً وجيرانـا
مـــا لاحَ طلْعُـــك لي إلاّ وذكّـــرني ... ربيـعَ ريفـي بطلـعِ النخـلِ مُزدانـا
كـم ذكّـرَتْني بسـاتينُ النخيـلِ هنـا ... مـن نخـلِ ريفـي جنـاتٍ وبسـتانا
وكـم دعَـتْني وأغـرَتْني لأدخلَهـا ... حـتى ألاقـي بهـا أهـلاً وخُلاّنـا
يـا نخـلَ صـيداءَ قـد أشْـعَلْتَ نيرانـا ... بقلـبٍ نـاءٍ بعيـدِ الـدارِ ولْهانـا

(الصافي النجفي، ١٩٧٧، ص٤٢٤)

ولم يكن الصافي ثقيلاً على الشام ولم يبرم به أهله إلاّ أنّ التغرّب مؤلم موحش، فكيف وقد جمع الصافي غربتين؛ غربة الفقر وغربة الدار بحسب تعبير سيد البلغاء والفصحاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «الغِنى في الْوَطَنِ غُرْبَةٌ والفقْرُ في الوطنِ غُرْبَةٌ» (الصالح، دون تا، ص٤٧٨). وقد سئم الصافي الغربة وأحبَّ العودة إلى بغداد طيلة إقامته في الشام وشعر بأنّ بغداد تعذله على هذا التغرّب:

قـــد كفـــاني تَغَـــرُّبٌ وابتعـــادُ ... عـــاتَبَتْني بحُسْـــنِها بغـــدادُ:
أيـــنَ تبغـــي دنيـــا وتبغـــي بـــلاداً؟ ... أنـــا وحـــدي الـــدنيا ووحـــدي الـــبلادُ

(الجبوري، ٢٠٠٨، ص٢٣٣)

وفي طيّات دواوينه الكثر، كمّ هائل من المقطوعات الشعرية الملتهبة بزفرات الحنين والشوق إلى الوطن، لا يسعنا المجال لدراستها كلّها، بل نرجع القارئ العزيز إليها.

ب) الاغتراب الزماني

يتمثّل الاغتراب الزماني بشعور المرء بأنّه لا يعيش في الزمان المناسب، وأنّه ينبغي أن يكون في عصر غير عصره، عصر يضمن له كرامته ويصون له حقوقه ويُكِنُّ له الاحترام. وقد ظهر هذا النمط من الاغتراب لدى كثير من الشعراء في الأدب العربي. فقضية الزمان، وتوالي الأيام، وانقضاء العمر، وهجوم المشيب كلّها أمور كانت ولازالت تستأثر اهتمام الأدباء والشعراء. ولعلّ أشهر بيت دالٌّ على الاغتراب الزماني البيت الذي تتناقله الألسن:

ألا ليتَ الشبابَ يعودُ يوماً فأخبره بما فعلَ المشيبُ

وغالباً ما يتمثّل الاغتراب الزماني في حنين الشاعر إلى سالف الأزمان، وبالتحديد عهد الشباب والصبا والطفولة، ذلك أنّ الإنسان لا يتحمّل مشاقّ الحياة ولا يدرك معانيها الصعبة، فتبدو له الطفولة وبراءتها جميلة وادعة. ومن هذا المنطلق يمكننا القول إنّ كلّ واحد منّا يعاني غربة زمانية بشوقه إلى أيام الطفولة الحالمة. إلاّ أنّ الشعراء تمكنوا من بثّ لواعجهم وآلامهم الزمنية في أبيات الشعر وصوّروا هذا الحنين إلى الماضي أحسن تصوير. وبالنسبة لشاعرنا فإنّه لم يُستَثْنَ من هذه القاعدة، بل إنّ اغترابه الزماني يفوق اغترابَه المكاني بأضعاف مضاعفة. يلعن الصافي زمانه ويوجّه إليه لائمته في كلّ ما أصابه من نكد وقروح ومنها فقدان أصدقائه في عهد الغربة:

ماذا لقيتُ من الزمان الأنكدِ أيموتُ أنصاري ويبقى حُسَّدي؟
ذهب الشبابُ وصحبُهُ واليومَ في شيخوختي ألقى الخصوم بمفردي

(الصافي النجفي، ١٩٧٧، ص٤٣٣)

إنّه يرى الزمان منشأ لكلّ جراحه، فعجلة الدهر كأنّها حربٌ طاحنة كبّدته جراحاً لا تُداوى:

يقولُ لي الطبيبُ وقد رآني جريحَ القلبِ واليدِ واللسان
ألا قُلْ لي جُرِحْتَ بأيِّ حربٍ؟ فقلْتُ جُرِحْتُ في حربِ الزمان

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٦٢)

وإذا كان الزمان لا يأتي إليه إلاّ بما يخشاه فليته يتوقّف كيلا يحل الغد الداجي:

تعبتُ من السير الحثيث إلى غدٍ فهلْ من وقوفٍ أو رجوعٍ إلى الأمسِ؟
أرى الأمسَ يبدو لي منيراً وكلَّما نظَرْتُ غدي سادَ الظلامُ على حسّي

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ ب، ص١٧٩)

والشاعر يؤلمه ما مرّ الزمانُ ولذلك فهو يتأوّه على كلّ يوم يمرّ به فأصبح يشعر بالمقت ليومه الذي هو فيه فما إن ينقضي ذلك اليوم ويحلّ آخر محلّه حتى تراه يتحسّر عليه ويتوق لعودته:

سوف يبكي الغدُ يومي في غدٍ مثلَما يومي على أمسي بكى

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٧٧)

والصافي شاعر المعاني قبل كلّ شيء، فهو يغتنم كلّ ظاهرة حديثة ليوظّفها في شعره ويصل بها إلى المعنى الذي يختلج في صدره، فوسائط النقل مثلاً بدأت بالتطوّر في عهده، لكن انظر إليه كيف يتحدّث عنها لبيان غربته الزمانية:

وسائلُ النقلِ كُثْرٌ تستطيعُ بها سَيْراً لأيّ مكانٍ أنتَ تهواهُ
فهل وسيلةُ نقلٍ للزمان لكي تُعيدَنا لشبابٍ قد ألِفْناهُ؟

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص١٩)

وقد توالى مرّ الزمان عليه برتابة فأصابه ذلك بالسأم والملل، فجعل يتمنّى حدوث أيّ شيء جديد له حتّى ولو كان ذلك الشيء الجديد حزناً جديداً:

ألا هَمٌّ جديدٌ يعتريني ليُنقِذَني من الهمِّ القديمِ
فتحصيلُ السرورِ يَئِسْتُ منه فصِرْتُ أُريدُ تجديدَ الهمومِ

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٩٣)

وفي الكهولة بكى شبابه، وفي مشيبه بكى كهولته فهذا هو دأبه لا يزيده الدهر والزمان إلاّ ألماً:

بكيتُ على عهدِ الشبابِ وها أنا بشيبي على عهدِ الكهولة باكي
ففي كلِّ يومٍ لي مناحةُ فاقِدٍ وفي كلِّ حينٍ لي تأوّهُ شاكي

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٥٧)

وممّا يحزّ في قلب الشاعر أنّ الناس يروّحون عن غربتهم الزمنية باستعادة ذكريات الماضي والتفكير في حلاوتها، أمّا هو فإنّه غريب حتّى في غربته هذه. فالماضي قد امتزج بين اللذات والآلام، ولو أراد أن يستعيد شيئاً من ذكريات الماضي لا ينال إلاّ الآلام أمّا اللذات فتخذله ولا تراوده حتّى في أفكاره:

تذكرتُ آلامَ الصبا فاستعدتُها عساها بلذّات الصِّبا ليَ ترجعُ
فعادتْ ليَ الآلامُ طرًّا سليمةً وما عُدْنَ لذّاتٌ بها كنتُ أطمعُ

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٧٦)

إنّ مجرّد التفكير بالماضي عند الصافي يؤرّقه ويجعل القلق يساوره؛ لأنّه قد لا يجد بغيته في ماضيه الذي ولّى:

تلك الملاعبُ هل يوماً أعودُ لها ... أرى بها من لِداتِ العمرِ إخوانا؟
أخشى إذا عدتُ لا ألقى لهم أثرا ... إذ أصْبَحُوا تحتَ هذي الأرضِ سكانا
وإن يكنْ أحدٌ باقٍ سيُنكرُني ... فالدهرُ غَيَّرَ أشكالاً وألوانا

(الصافي النجفي، ١٩٧٧، ص٤٢٦)

وقد كان الصافي محقّاً في خشيته من العودة للماضي، فقد كان يمنّي نفسه بالخلاص من غربته القاتلة من خلال العودة إلى معاهد الأنس وربى الطفولة والشباب، لكنّ آماله سرعان ما خابت لفقدان من كان يحبّهم في الماضي:

قد جرعتُ الأسى بدارِ اغترابي ... فلأعُدْ مسرعاً لمهدِ الشبابِ
فنظرتُ الربى بشوقٍ ولهفٍ ... مستعيداً فيها عهودَ الشبابِ
وإذا بالرفاق بعضٌ بأسفارٍ ... وبعضٌ قد نامَ تحتَ الترابِ
معهد الأنسِ في بلادي أضحى ... مأتمَ الحزنِ فلأعُدْ لاغترابي!

(الصافي النجفي، دون تا، ص٢٦)

إلاّ أنّ الاغتراب الزماني لا ينحسر على رغبة المرء بالعودة إلى الماضي، بل قد يصل إلى مرحلة حادّة يشعر فيها بعبث الحياة وضرورة أن يتوقّف مرور الزمن، فيسيطر عليه التشاؤم وتنتابه نوازع الانتحار والخروج من دائرة الزمان. ولقد راودت فكرة الانتحار شاعرَنا مراراً لكنّه عدل عنها لكراهية أن يأتيه الموت إجباراً. فيخاطب الموت بقوله:

أنا أهواك غيرَ أنّي لا أرْ ... ضاك تأتي بالكرْه والإجبارِ
ولوَ انّي لم أخشَ سُخْطَك منّي ... كنتُ آتي إليك بالانتحارِ

(الصافي النجفي، ١٩٦١، ص٧١)

وكذلك قوله:

ويا موتُ ما أنتَ إلاّ انتصارْ ... وما خيفتي منك إلاّ اندحارْ

(الصافي النجفي، دون تا، ص٦٢)

والموت من وجهة نظر الصافي خلاص من البؤس والشقاء الذي ظلّ يلازمه طيلة دهره والمتمثّل بفقره وغربته:

أرى المـوتَ لي أحلـى وأعظـمَ نعمـةٍ وكـم أنـا أدعـوهُ فلـم يَسْـتَمعْ صـوتي
ولـيس يمـوتُ البائسـون بسـرعةٍ لأنّ حيـاة البـؤس شـرٌّ مـن المـوتِ

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٩٦)

إنّه يسعى للموت ليستريح من همّ الزمان الأكول ويلقي بثقل همومه عليه، فالزمان طاحنٌ يشعر فيه بالغربة القاتلة:

كأنّـا عائشـونَ بـبطنِ فُلْـك ونأكـلُ والزمـانُ لنـا أكـولُ

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص١٠٦)

ج) الاغتراب الاجتماعي

لعلّ أشدّ أنواع الاغتراب في المجتمعات العربية اليوم، هو الاغتراب الاجتماعي. ذلك لأنّ النظام الاجتماعي في كثير منها نظام قبلي يخضع للولاء العشائري. إذ يفرض هذا النظام على المجتمع أعرافاً ما أنزل الله بها من سلطان، وذلك بشيء من العصبية الجاهلية. ولقد حاول الإسلام بطرق كثيرة تحطيم الوحدة العشائرية «في سبيل بناء الأمّة القائمة على وحدة المعتقد، وذلك لأنّ نموّ القبيلة إنّما يكون على حساب الأمّة» (شمس الدين: ١٩٧٥، ص ٨) وفي ظلّ هذا النظام يُحرَم الكثيرُ من الناس من أبسط حقوقهم. والمعايير التي ترفع من شأن هذا وتحطّ من شأن ذاك ليست قائمة على أساس اللياقة والمؤهلات الإلهية والعلمية. فترى الفئة المثقفة نفسها في مجتمع لا يتلاءم مع تطلعاتها وآمالها. فتحاول أن تغيّر الأعراف والتقاليد السائدة في المجتمع لكنّها تعجز بعد فترة وجيزة وتصاب بالإحباط، فيكون ذلك الفشل والإخفاق مدعاة للعزلة والشعور بالغربة.

إذن فالاغتراب الاجتماعي ليس كالاغتراب المكاني الذي يواجه فيه المرء غربة سببها الابتعاد عن الأهل والوطن، بل يشعر المرء بغربته رغم وجوده بين أهله في مجتمعه الذي نشأ وترعرع فيه. وليس بالضرورة اعتبار كلّ من يعاني الاغتراب الاجتماعي هو الوجه الإيجابي للتقويم الاجتماعي، فليست جميع التقاليد التي يفرضها النظام القبلي سلبية بالضرورة. بل إنّ بعضها يدعو إلى نبذ التحلّل والميوعة والخلاعة. إلاّ أنّنا قد عُنينا بالاغتراب الاجتماعي للصافي وحسب ولا شأن لنا إن كانت بعض آرائه غريبة. فالرجل عاش عمره أعزب لم يقترن بزوجة لأسباب منها غرابة تصوراته وأفكاره عن المرأة. وهي تصوّرات كما سنرى لا تمتّ بصلة إلى أيّ معيار عقلي.

إنّ الصافي يرى نفسه أكبر من شاعر عاديٍّ، إنّه يرى نفسه مصلحاً اجتماعياً كبيراً. ولذلك فإنّ أيّ إحباط في هذا المجال يدعوه إلى الشعور بالاغتراب:

ألا تبــــــاً لمجتمـــــــعٍ دَنِـــــــيٍّ تَكَــوَّنَ جنسُــهُ مـــن كــلِّ رِجْــسِ
أتَيْــــتُ لأنشُــــرَ الإصــــلاحَ فيــــه فَلَــمْ أُصْــلِحْهُ بــل أفْسَــدْتُ نفســي

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٦٢)

وتارة يرى الصافي نفسه فيلسوفاً لم يجد ضالّته في مجتمعه:

دعــــوني مـــن معاشــــرة البرايـــا فعِشْــرتُهم تضــاعفُ لي شــجوني
لـــئن أك في حجـــايَ كفيلَســـوفٍ فإحساســـــي قريــــبٌ للجنــــونِ

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ ب، ص٢١٢)

وكثيراً ما يشبّه نفسه بالمعرّي في فلسفته، فهاهو يتحدّث عن لسانه قائلاً:

إنّــي وقــومي كلانــا خابطــان دجــىً لكــنّني بــالعمى وســطَ الظــلامِ أرى

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ ب، ص٣٥)

لكن هيهات أن يستجيب قومه لنداء الإصلاح الذي يوجّهه إليهم، فالشعب كالمتظاهر بالنوم يصعبُ إيقاظُهُ خلافاً للنائم الذي يستجيب للنداء:

نَبّهــتُ قــومي للنــهوض فســاءهم إنّ النيـــامَ يَسُـــوؤُها الإيقــــاظُ
يَرضَــى الجَهُــولُ إذا كــذبتُ بِمَدْحِــهِ هُــزءً عليــه وإن صــدقتُ يُغــاظُ

(المعوش، ٢٠٠٦، ص٣٩٣)

إنّ مجتمع الصافي كغابة لم يعد لأهل الحقّ فيها مكانة بل تحكمها الثعالب:

لا تَــرْجُ حفــظَ العــزِّ في غــابٍ بــهِ بَــدَتِ الثعالــبُ واختَفــى الرِّئبــالُ

(المعوش، ٢٠٠٦، ص٣٨٢)

كيف لا وقلوب الناس قاسية كالحجارة أو أشدّ قسوة لا تؤثّر فيها المواعظ:

إلهــي لمــاذا قــد خُلِقْــتُ غريبــا؟ أخاطِــبُ أحجــاراً دُعــينَ قلوبــا

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص١٣١)

وكثيراً ما يبعث الصافي لعناته على من يتظاهرون بزيّ الواعظين ويخدعون الناس بأباطيلهم وينفحون في الشعوب أفيون التخدير:

يهــدي الشــعوبَ الواعظــون وإنّمــا شــعبي أضــلَّ عقولَــه الوُعّــاظُ

(المعوش، ٢٠٠٦، ص٣٩٣)

وفي قصيدة عنوانها «خادع الشعب» يصف الصافي زعماء الأمّة ورجالاتها الذين ربوا على افتراس الناس بأضراس طحنت الشعب بأكل أمواله، ولابدّ من اقتلاعها لتسوّسها كيلا تضرّ بباقي الأسنان، ثمّ يخلص في نهاية المطاف إلى القول:

نحن من موت شعبنا في مآس ... وكأنّا للّهوِ في أعراسِ
كلّ شعب راج النفاق لديه ... فهو شعب يسير للإفلاسِ

(المعوش، ٢٠٠٦، ص٣٨٨)

وليس بالضرورة أن يبعد المغترب اجتماعياً ويلجأ إلى الصحارى أو القفار، يكفيه الشعور بالغربة وهو بين ظهرانيهم ليكون مغترباً كئيباً:

أرى النفسَ تشكو وهي في الناسِ وَحْدَةً ... وتشكو وإن تَقرُبْ لهم ألَمَ البُعدِ
يُبَعِّدُني طبعٌ عن الناسِ نافرٌ ... فأحسَبُني بينَ الورى جالساً وحدي

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص١٥)

إلاّ أنّه يودّ أحياناً لو كان يظفر بواسطة تبعده عن المدن وويلاتها ونفاق أهلها، كأن يكون راعي قطيع من الغنم فيسرح هو وقطيعه في البيداء لا يرى البشر بل تطيعه أغنامه:

يا ليتني كنتُ راعياً غنماً ... في البرِّ أقضي الحياةَ منفردا
لي أمّةٌ أينَما ذهبْتُ معي ... تذهبُ لما ارتضتْ هداي هدى
عمري عيشي في الضأنِ لا عُمُرٌ ... يذهبُ بين الورى عليَّ سُدى

(الصافي النجفي، دون تا، ص٥٢)

والطريف أنّه لا يكتفي بالفرار من الناس بل حتى من التفكير بالناس ويتمنّى لو أنّه كان من جنس غير جنس الناس ليكون في منأى عن قساوة البشر:

أفرُّ للبيدِ من ناسٍ أملُّهُمُ ... طُرّاً فيلحقني التفكير بالناسِ
فليتَني كنتُ في بيداءَ مقفرةٍ ... وُلِدْتُ ما لي بجنسي أيُّ إيناسِ

(الصافي النجفي، ١٩٦١، ص٧٤)

وفي خضمّ هذه الغربة الاجتماعية، لا يبقى للمرء إلاّ اللجوء إلى الطبيعة أو الاختلاء بالنفس أو الركون إلى الخلاّن، وهي أمور جرّبها الصافي كلّها. أمّا اللجوء إلى الطبيعة فكما مثّلنا سلفاً، حيث يذكرنا بالشنفرى الذي يحبّ أن يعيش مع الحيوانات بعيداً عن بني أمّه، لأنّهم لا يذيعون له سرّاً ولا يخذلونه ولا يؤاخذونه على جرم ارتكبه، لكنّ الصافي لم يرتكب جنحة أو جرماً بل يكره العيش مع أهل المدن الذين يراهم منافقين:

يـا ليـتني كنـتُ كـالحيوان عيشـي مـن حشـائش الأرض كـي أنـأى عـن المـدن

(المعوش، ٢٠٠٦، ص٣٩٧)

وأمّا اختلاؤه بنفسه فأحياناً كان يعوّضه عن عزلته، لأنّه كان شاعراً ذاتيّاً إلى أبعد حدود الذاتية كما عبّر عنه بدر شاكر السياب في نهاية ديوان اللفحات (الصافي النجفي، ١٩٨٣ ب، ص٣٣٠) وذلك في مثل قول الصافي:

لي بنفسـي غـنىً عـن الكائنـات فهْـيَ نفسـي بمـا حَـوتْ مـن هِنـاتِ

أنـا بـين الـورى غريـبٌ ومـا لي غـيرُ نفسـي مـن صـاحبٍ في الحيـاةِ

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص١٠٢)

وأحياناً كان يخيب ظنّه بنفسه فلم يكن اختلاؤه بها ناجعاً بل يواجه اغتراباً نفسيّاً يجعله يفرّ حتّى من نفسه:

يلـذُّ ليَ انفـرادُ الـنفسِ حـتى أفـرَّ إلى الصـحارى والجبـالِ

وأُبْغـضُ أن أرى المـرآةَ كـيلا يُـنَغِّصَ وحـدتي فيهـا خيـالي

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٣٨)

ويصل الأمر به إلى تصوّر أفكاره التي يحملها كأفاعٍ ينفثن فيه الهواجس:

أفـرّ للـنفس مـن نـاس أملُّهُـم مـا حيلتي قـد مللـت الـنفس والناسـا

كـأنّ أفكـاري الـلاتي تسـاورني أراقـمُ نافثـاتٍ فيَّ وسواسـا

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص١١٧)

وأمّا الركون إلى الخلاّن فهو أيضاً قد يجدي وقد لا يجدي كما سنرى في اغترابه الإخواني. ويبقى الشاعر رهين غربته ويكاد يصرخ أنّه يجد نفسه قد فُرض على العالم ولا بدّ له وللعالم أن يتحمّل أحدهما الآخر:

لا شـيء يُرضـيني ولا أُرضـيهِ الكـونُ لي خَصْـمٌ بمـا يَحْويـهِ

قـد تهـتُ فيـه ولم أبـارح مسـكني فكـأنّني مـن مسـكني في تيـهِ

(الصافي النجفي، ١٩٦١، ص٤٧)

والصافي قد اختار غربته وتشرّده بنفسه لأنّه يرى بها لذة لا يكاد يجدها في مكان آخر، هذا فضلاً عن بعض العوامل التي تساعده على ارتضاء الغربة من مثل الفقر، والفوضى وجنوحه للعزلة، ممّا يساعده على تحمّلها وإدمانها:

قـد اخـترتُ منـذ القـدم عـيش التشـرّد لفقـري وللفوضـى وحـبّ التجـرّد

ومازلت فيه رغم ما نلتُ من غنىً فلي أضحتْ لذّة المتعوّد

(الصافي النجفي، ١٩٧٧، ص٣٣)

إنّه يرى أنّه تمكن من تثقيف نفسه في مدرسة الغربة والتشرّد، وقد علّمته هذه المدرسة ما لم تعلّمه المعاهد العلمية والجامعات طلبَتها:

بثقافتي وتوحّدي وتمرّدي وتشرّدي
أدركتُ ما قد فاتَ كلَّ الدارسين بمعهدِ
هذي العوالم لي أتت وأنا لها لم أقصدِ
جاءت إليّ بوحدتي وبشاعرٍ لم أقتدِ

(الصافي النجفي، ١٩٧٧، ص٤٠)

والحقّ أنّه صادق فيما يقول، فمن السهل جدّاً أن نرى أنّ الصافي نسيج نفسه ولا نكاد نجد ردّ أثر للتقليد في شعره بل شعره صادر عن تأمّلاته الوجدانية في الحياة، ولا نعثر في كتابات الذين انتقدوه من أمثال مارون عبود وإبراهيم السامرائي ما يدلّ على تقليده.

ومن أسباب اغتراب الشاعر تمسّكه بما يراه حقّاً وعدم تخلّيه عنه. حتى وإن أدّى ذلك إلى ابتعاد الناس عنه:

أقول لأرضي الحقّ عنّي لا الورى لأنّي غنيّ عن رضا الناس مستغني
أقول لكي أرضى عن الناس إن هدوا بقولي وما قولي ليرضى الورى عنّي

(الصافي النجفي، ١٩٧٧، ص٣٠)

د) الاغتراب الفنّي (الشعري)

لعلّ هذا النمط من الاغتراب هو من اختلاق الباحث وينفرد الصافي فيه عن سائر المغتربين. فهو دائم الحديث عن كونه شاعراً فذّاً لا يضاهيه إلاّ النزر القليل من الشعراء. ونرجسيته جعلت منه شاعراً غريباً في أمّة الشعراء لأنّه يرى نفسه شاعراً بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى، وأمّا الآخرون فإنّهم قد قصّروا عنه ولا يكادون يبلغون شأوه، لأنّهم يفتقدون للحسّ والشعور:

أيا شعراءَ الدهرِ هل في كؤوسكم من الدهرِ صابٌ مثلَ ما ذقتُ من كأسي؟
فليتَ لنا كوناً سوى كونِ ذا الورى أيحيى أخو حسٍّ بكونٍ بلا حسٍّ؟

(الصافي النجفي، ١٩٧٧، ص٢٣)

ومن هذا المنطلق فإنّه تثور ثائرته إذا ما حظي شاعر مفتقد للحسّ والشعور بإعجاب الناس وتكريمهم، فتراه يكيل إليه أنواع الذمّ لكن مع تحفّظه المعهود في عدم ذكر اسمه:

ونــــــــاظمٍ لَقّبُـــــــوهُ جهــــــــلاً ... بأنّــــــــه شــــــــاعرُ القـــــــرونِ
قلــــــتُ: أجــــــلْ تلكــــمُ قــــرونٌ ... بـــــالثورِ خُصِّصْـــــنَ لا الســــنينِ
للشـــــعراء انتمــــــى ولكــــــنْ ... مــــا فيـــه منـــهم ســوى الجنـــونِ

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٢٢)

ويبلغ شعوره النرجسي إلى تصوّر نفسه بأنّه أعظم الشعراء على الإطلاق، وأنّه محسود وأنّ الآخرين لا يصلون إلى مرتبته وإن سَعَوْا:

سمـوتُ بشـعري فـوق جيلـي ولم يَـزَلْ ... يَشُــك بشــعري مَعشَــرُ البُلَهــاءِ
فـإنْ لم أكـنْ مـن أمّـة الشـعر واحـداً ... أكــنْ أُمَّــةً أعلــى مــن الشــعراء

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٥٠)

ويختلق الصافي حواراً بينه وبين الشعراء يسألونه عن أفضل الشعراء فيقول إنّه إيليا أبو ماضي ولا ينسى أن يتعالى حتى على إيليا بقوله:

ســـألتْنيَ الشــعراءُ أيــن أميرُهــم؟ ... فأجَبْــتُ «إيليّــا» بقــولٍ مطلــقِ
قــالوا: وأنــت؟! فقلــتُ ذاك أميركــم ... فأنــا الأمــيرُ لأمّــةٍ لم تُخْلَــقِ

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص١٩٠)

والطريف أنّ الصافي يتصوّر أنّ سائر الشعراء كالغرقى في بحور الخليل، أي يكوّن القالبُ والشكلُ جلَّ سعيِهِم ولا يتجاوزون مرحلة العبقرية، ولهذا فإنّه يختلف عنهم وهذا هو سرّ غربته:

أنــا في الشــعر كالغريــب فجيلــي ... في عكـاظٍ أو بعـدَ ذا العصـرِ جيلـي
أفَيَــأتي نــوحُ الشــعورِ بفُلْــك ... فيُنَجِّــي غرقــى بحــور الخليــلِ

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٧٤)

ولهذا يعزو تجمّع الرفاق حوله أو تفرّقهم عنه إلى مدى انحطاط شعره أو سموّه، فكلّما حاول إرضاء ضميره اغترب، وإذا ما تخلّى عن عبقريته الشعرية زالت غربته:

حــينَ أنحــطُّ بــالقريضِ إلى الأرضِ ... تزيـــدُ الرفـــاقُ في جانبيّـــا
وإذا مـــا ارتفعْــتُ بالشــعر أبقــى ... مفــرداً يضــحك الأنــامُ عليّــا

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٤٧)

ولهذا فإنّه يأسف أحياناً على نشر شعره في مجتمع لا يفقه معنىً للشعر:

أســفْتُ علــى نشــرِ شــعري الزكــيّ ... بمســـتَنْقَعٍ بالخنـــا زاخـــرِ

سـأركلُ هـذا الوجـودَ الـدنيّ وأكفُـرُ بالبشـرِ الكـافرِ

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ ب، ص٤٦)

ولعلّ ما يجعله يشعر بهذه النرجسية أنّه لم يقلّد في يوم من الأيام لأنّه لم يجد في الشعراء من يستحقّ أن يقتفي أثره سوى أبي الطيب أحمد المتنبّي، بل لعلّ المتنبّي مجدّد ليس إلاّ ولم تشهد أمّة الشعر مجدّداً بعد أحمد المتنبّي سوى أحمد الصافي:

إلى الشـعر يـأتي كـلَّ ألـفٍ مُجَـدِّدُ فبَعْـدَ نـبيِّ الشـعرِ أحمـدَ أحمـدُ

حمـاني مـن التقليـد مـا عشـتُ أنّـني إذا رمـتُ أمـراً لم أجـدْ مَـن أقلِّـدُ

(الصافي النجفي، ١٩٥٢، ص٧)

والصافي يرى أنّ الشعر أسمى من أن يكون لهو لاهٍ أو أداة تكسّبٍ، بل هو رسالة ومسؤولية أُنيطت به دون غيره من الناس، للإصلاح وتعزيز الإيمان في نفوس الخلق:

كـلّ الـذي قلـتُ توليـدٌ وتجديـدُ وكيـف يرتـادني في الـنظم تقليـد

إذا نظمـت ملكـتُ الكـونَ منفـرداً فـلا أرى أنّ غـيري فيـه موجـودُ

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص١٣٨)

ومن هذا المنطلق يشعر بأنّه غريب عن أمّة الشعراء وأمّة اهتمّت بتقويم الشعر، ذلك أنّ شعره مقطوف من حديقة الحياة وفائح برائحة الحياة، حلوها ومرّها:

شـعري غريـبٌ الجـنسِ عـن أشـعاركم فمِـنَ الحيـاةِ زُهُـورُهُ تَتَفَتَّـقُ

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص١٣٨)

ولو شئنا أن نأتي بنماذج من اغترابه الفنّي أو الشعري لضاق بنا المقام، لأنّ حديثه عن شعره وشاعريته هو أكثر ظاهرة طفحت على دواوينه الشعرية.

هـ) الاغتراب الإخواني

نقصد بالاغتراب الإخواني، قلّة الأصحاب والرفاق. فالشاعر قد عاشَرَ أناساً كثيرين، وانعقدت بينه وبينهم صداقات وسيعة، إلاّ أنّه سرعان ما يفقد هذه الصداقات لأنّها ليست قائمة على الوفاء والصدق والمؤازرة في وقت الشدّة. ولهذا فإنّه يندب حظّه العاثر وينعى غربته القاتلة:

أعـيشُ غريبـاً بهـذا الوجـودْ ومـالي سـوى دارة الشـهبِ دارْ

(الصافي النجفي، دون تا، ص٦٢)

الوفاء ذلك الإكسير المجهول الذي بحث عنه كثير من الناس ولم يجدوه:

مَـــرَّ عمـــري ولم أزلْ أتحـــرّى وأطـــوفُ الأمصـــارَ والأحيـــاءا
وأنـــادي يـــا أيُّهـــا النـــاسُ قولـــوا هـــل رأيـــتم شـــيئاً يُسَـــمّى الوفـــاءا ؟

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٩٤)

وليس من السهل على الصافي فقدان تلك الصداقات، فهي عنده بمثابة موت عزيزٍ من أعزّته:

إذا مـــا صـــديقٌ خـــانَ عهـــدَ وداده فقـــد مـــاتَ والتـــأبينُ فيـــه يليـــقُ
هلمّـــوا فعـــزّوني وقولـــوا لـــك البقـــا ففـــي كـــلِّ يـــومٍ لي يمـــوتُ صـــديقُ

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٢٣)

وكعادته يأوي الصافي إلى شعره ليعوّض به عن أنواع غربته ومنها الاغتراب الإخواني:

كم قد خُدِعْتُ بأصحابٍ وثقْتُ بهم فلـم أجـدْ ليَ فـيهم مَـن يواسـيني
لم يبـقَ عنـدي سـوى الأشـعار أنظمهـا لم يبـقَ خِـلٌّ سـوى شـعري يسـلّيني

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص١٤٧)

والعجيب أنّ الصافي يفخر بقلّة إخوانه وكثرة أعدائه، فهو يرى في هذه الخصومات سبباً لرقيّه وعظمته:

إنّ نفســـــي كـــــثيرةٌ بالمزايـــــا فهـــي تصـــبو لكثـــرة الخصـــماء
أنـــا أنمـــو لـــدى ازديـــاد خصـــومي إنّمـــا أنْفَـــسُ الخصـــومِ غـــذائي

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ ب، ص٦٦)

والحقّ أنّه لم يكن له أعداء كثر، بل كان بحسّه المرهف يستاء من كلّ صغيرة أو كبيرة يفوه بها الخلق، بل لعلّ مجرد نظرة فاحصة يلقي بها الناس إليه تجعله يثور ويشنّ حرباً شعواء على الذين أمامه، لكن بلسان الشعر لا في الواقع. يقول الصافي واصفاً إحدى معاركه:

وذي لـــــؤمٍ أصـــــرَّ علـــــى أذاتي فـــأحرجَ مـــنيَ الحِلْـــمَ الفســـيحا
فقلـــتُ إليـــك خـــذ ضـــرباً ولكمـــاً وســـبّاً عـــامراً وهَجـــاً فصـــيحا
لقـــد أثخنتُـــهُ طعنـــاً وهجـــواً وقـــد أدْمَيْتُـــهُ جســـماً وروحـــا

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ ب، ص١٥٦)

و) الاغتراب العاطفي

عاش الصافي عمره لم يقترن بامرأة، وظنّ الكثير أنّه كان مُعرضاً عن الزواج ليتسنّى لعبقريته بالبقاء والإبداع، لأنّ المرأة تفسد عليه رأيه وتطفئ وهج العبقرية لديه. وقد عزّز الصافي هذا الظنّ في شعره إذ راح يأتي بالذرائع والذرائع يبرّر عدم زواجه:

لم ألـــقَ بـــينَ جنســـي ... في النـــاس مـــن أصـــفياءِ
فكيـــفَ ألقـــى صـــفاءً ... مـــا بـــين جنـــس النســـاءِ؟!

(المعوش، ٢٠٠٦، ص٨٦)

إنّه ينظر إلى المرأة نظرة انتقاص. فالمرأة من وجهة نظره إمّا أنثى وإمّا ذات عقل وحجى، فيقول ساخراً فكهاً وفي نقد لاذع وجارح:

ومـــن تكتمـــلْ في العقـــلِ تفقـــدْ أنوثـــةً ... كـــذاك النســـا؛ إن تكتمـــلْ تترجّـــلِ
مـــعَ العقـــلِ تَمشـــي أو مـــع امـــرأةٍ فـــإنْ ... تحـــاولْ بجهـــدٍ جمـــعَ هـــذينِ تَفْشَـــلِ
عـــدوّان، منـــذُ البـــدءِ عقـــلٌ وامـــرأةٌ ... وإن لم تصـــدّقْ فـــالقَ آدمَ واســـألِ

(الصافي النجفي، ١٩٧٧، ص٤٧)

ويعزو ذلك أحياناً للعبقرية التي يخاف عليها من الضياع:

قـــالوا: تَـــزَوَّجْ تُبْـــقِ بعـــدك وارثـــاً ... للعبقريـــة يـــذكرون بـــه الأبـــا
فأجَبْتُهُـــم: شـــاهدتُ مـــن لم يُنْجبـــوا ... وأنـــا النجيـــبُ فخفـــتُ أن لا أُنجبـــا

(الصافي النجفي، ١٩٦٢، ص٢٩٥)

والحقّ أنّ الصافي لم يتزوّج لفقره والأمراض التي كانت تلازمه طيلة عمره بالإضافة إلى دمامة وجهه. «لقد كان الصافي معقّداً من المرأة وذلك يعود لدمامة وجهه... الأمر الذي يؤدّي إلى نفورها منه.. وكذلك فإنّه قد اتّخذ موقفاً مسبقاً منها على أساس من عجزه عن التعامل معها؛ لأنّه غير قادر على إرضائها جسدياً ولا خلقياً.. بالإضافة إلى عقدة الخجل فيه وحبّه العزلة.. لذلك فهو فاشل في حبّة منذ البداية، فقد كلّ وسيلة للتعامل مع المرأة:

رجـــوتُهُنَّ بمـــالي ... فضـــاعَ مثـــلَ رجـــائي
تنـــأى الدميمـــة عنّـــي ... فكيـــف بالحســـناء؟!»

(المعوش، ٢٠٠٦، ص٨٨)

وقد سبّب ذلك له اغتراباً عاطفياً، ويحدّثنا سالم المعوّش عن تجربة عاطفية مرّ بها الصافي عندما كان في السادسة عشرة من عمره، حيث كان يعيش مع أخيه الأكبر محمّد رضا الصافي

وكانت له زوجتان إحداهما حضرية من النجف والأخرى قروية من أبي صخير وكانت لهذه القروية أخت شابّة جميلة الملامح قوية الجاذبية، عرف أخوه حبّه لها من نظراته التي كان يصوّبها لها فوعده بتزويجه إيّاها إلاّ أنّه أعرض عن قراره بعد شهرين ممّا جعل الشاعر يصاب بالإحباط ويعزف عن الزواج نهائياً (المعوش، ٢٠٠٦، ص٤٩).

ودواوين الشاعر حافلة بأبيات الشكوى من دمامة الوجه التي خلّفت له الغربة العاطفية:

ولم أخشَ من هجْرِ الحسانِ ففي الصبا رأيتُ عيونَ الغيدِ عن منظري تنبو

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص١٧)

ومنها قوله:

يا مَن أتى نحوي ليرسمَ صورتي إنّي عدوُّ الرسمِ والرسّامِ

رسمي على المرآةِ وهو موقّتٌ يؤذي فكيف إذا أقامَ أمامي

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص١٧٨)

ويشير إلى هذه الغربة العاطفية قولُه:

نأى الحظّ عنّي في صبايَ وإنّني سأرفُضُهُ إن جاء في آخر العمرِ

بكيتُ عليه في حياتي وفي غدٍ سأترك هذا الحظَّ يبكي على قبري

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٥٤)

ز) الاغتراب في الملبس

لقد كان زيّ الصافي النجفي مدعاة لاختلافه عمّن يحيط به من الناس. فلقد أصرّ حتّى آخر حياته على ارتداء الصاية والكوفية والعقال والعباءة، وهو الزيّ الذي كان يرتديه البدو وأبناء العشائر وشيوخ القبائل من شعب العراق، ويبدو أنّ الشاعر كان يرتدي العمامة كرجال الدين في شبابه كما يشير هو إلى ذلك عندما وقعت عينه على صورة تذكارية وصلت إليه من طهران مع ملك الشعراء بهار وآخرين وقد كان يرتدي العمامة. أما زيّه البدوي فقد ظلّ متمسّكاً به في الشام ولبنان، وهو ما كان يثير غرابة الناس هناك لأنّه لم يكن معهوداً عندهم. يقول خليل برهومي عنه: «لم يكن شكل الصافي يوحي بأنّه شاعر كبير، فمن ينظر إليه للوهلة الأولى يخَلْ أنّه بدويّ لا يعرف القراءة والكتابة وأذكر أنّه دعاني.. إلى منزله بعدما ترك الفنادق لآخر مرّة. ركبنا سيارة الأجرة وجلس الصافي إلى يمين السائق.. وبعد قليل حانت من السائق التفاتة للشاعر ثمّ سأله: هل هؤلاء أولادك؟ فأجاب الصافي: كلّ هؤلاء تلاميذي. فقال

السائق: وهل أنت أستاذ يا أخ؟ قال نعم . أنا أستاذ بجامعة طهران سابقاً وعندي كتب ومؤلفات وهؤلاء تلاميذ يدرسون عندي. وأصيب السائق بما يشبه الذهول!» (برهومي، ١٩٩٣، ص٥٧). كان هذا التمسّك بالزيّ سبباً لمعاملة الناس إياه بامتهان. يقول واصفاً هذا الجهل:

يـــراني غبيّـــاً جهـــولٌ غـــبيْ ... فأضـــحك للأعجَـــبِ الأغـــربِ
لقـــد جهلـــونيَ مـــن جهلـــهم ... وزِيِّـــيَ قـــد ضـــاعَفَ الجَهْـــلَ بي

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص١٨٥)

وتثور ثائرته على أولئك الذين سلّموا قياد عقولهم لما تراه أبصارهم من دون تمحيص أو تحرٍّ:

يـــا جـــاهلين تغـــرُّهم أثوابُهُـــم ... فتخـــالُهم وهُـــمُ العبيـــدُ ملوكـــا
أنـــتم نظـــرتم ظـــاهري فضـــحكتُمُ ... ونظـــرتُ بـــاطنَكم فعُـــدْتُ ضـــحوكا

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٣٢)

واستمع إلى شكواه من هذا الجهل حتّى عند ذوي الفطن يقول:

لبسْـــتُ ثوبـــاً جديـــداً فاكتســـبتُ بـــه ... شـــأناً جديـــداً وصـــار الكـــلُّ يُكـــرِمُني
فصـــار يبســـمُ لي مَـــن كـــانَ يعـــبسُ بي ... وصـــارَ للصـــدرِ يـــدعوني ويُجلِسُـــني
ظننـــتُ ألبِسَـــتي للبُلْـــهِ خادعـــةً ... وإذ بهـــا خـــدَعَتْ حتّـــى ذوي الفطَـــنِ

(الصافي النجفي، دون تا، ص٣٤)

ح) الاغتراب النفسي

وهو ما يسمّيه البعض بالاغتراب الذاتي، وهوأن يصبح الشخص ببساطة غير مدركلما يشعر به حقيقة، ويحبّه ويرفضه، ويعتقده، ولما يكونه في الواقع، فينشأ هذا الوضع حينما يطوّر المرء صورة مثالية عن ذاته تبلغ من اختلافها عمّا هو عليه حدّ وجود هوة عميقة بين صورته المثالية وذاته الحقيقية (العبدالله، ٢٠٠٥، ص٣٣). وقد ظهرت هذه الحالة جليةً في شعر الصافي النجفي. فقد كان الرجل انطوائياً على نفسه معتدّاً بها، لكنّه كان يشعر بالملل منها أحياناً فيصاب بنوع من النفور منها. وأكثر ذلك عندما يحار مع نفسه ورغباتها التي لا يمكن له أن يلبّيها بسهولة، إذ يعرض عليها رغباتها فتعافها النفس وتظلّ تحزّ في كيانه وتنخر روحه:

إنّ نفســـي تبغـــي الغنـــاء ولكـــنْ ... لســـتُ أدري بـــأيّ لحـــنٍ أغنّـــي
كلَّمـــا رُمْـــتُ أنْ أغنّـــي لحنـــاً ... صَـــدَّ عنـــه قلـــبي وأعـــرض عنّـــي

(الصافي النجفي، ١٩٦١، ص٩٢)

ويشعر تارة بالسأم من توقه إلى أمانيّ لا يدري ما هي وكيف تُنال:

إنّ نفسي تريد أمراً ولكنْ لستُ أدري يا قومِ ماذا تريدُ
قد عرَضْتُ المنى عليها ولكنْ لَمْ يَرُقْها قديمُها والجديدُ
وعَرَضْتُ الفنا لها فأبتْهُ وخلوداً فلَمْ يَرُقْها الخلودُ

(الصافي النجفي، ١٩٦١، ص٩٤)

ويصل الإحباط به تارة أخرى إلى التشاؤم الذي سبق وأن تحدّثنا عنه فيفضّل الموت على الحياة لأنّه قد فقد الأمل وصار يعيش من دون أمل: (الصافي النجفي، ١٩٦١، ص٢٦٠)

وما العيش عندي غير مستنقع به وقعت وما لي من منجٍّ سوى القبرِ

ومنه قوله:

كلٌّ له أملٌ يحيا ليدركه فكيف بي وأنا أحيا بلا أملِ

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٣٧)

بل يعتبر نفسه ميتاً بالفعل وهو بحاجة إلى الرثاء:

قلتُ للطالبين منّي رثاء لعظيمٍ في موقف التأبين
كيف أرثي سوايَ ميْتاً وإنّي الحيُّ في حاجةٍ لمن يرثيني

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ أ، ص٥٨)

والمتتبّع لسيرة الصافي والقارئ لدواوينه الشعرية يشعر بوضوح أنّ الرجل لم يسقط ما يسمّيه وحي الشعر منها، فقد أدرج كلّ ما جادت به قريحته، متأثراً بحالاته الجسمية والنفسية المختلفة، فترى التفاؤل يشخص ماثلاً أمامك إلى جانب التشاؤم. ولعمري ما هذا بالتناقض، بل هي حالات النفس الإنسانية، تثور أحياناً وتهدأ أحياناً أخرى، ويعتريها الشك والريب طوراً، وتطمئنّ باليقين والإيمان أطواراً أخرى.

ط) الاغتراب السياسي

عُرف الصافي في سيرة حياته بأنّه الرجل العصاميّ الذي لم يمدح جزافاً ولم ينخرط في الأحزاب السياسيّة، ولم ينطلق لاهثاً وراء الدنيا وزخارفها. كانت البساطة والفقر والمرض والغربة رداءه. لكن لا يعني هذا أنّه لم يتّخذ موقفاً سياسياً تجاه الأحداث المحدقة به. وقد حدّثناك في بداية المقال عن موقفه المشرّف إبّان الاحتلال البريطاني للعراق. فقد شارك في الثورة وتشرّد بسببها. ثم إنّه تعرّض للحبس ثلاثة وأربعين يوماً في سورية لمواقفه من الاحتلال

البريطاني فكانت نتيجة هذا الحبس ديوان حصاد السجن. لكنّ الذي يحزّ في قلبه، أن يضطلع بالثورة أناس، ويرقى الأكتاف أناس غير أكفاء يسوسون الأمّة ويسومونها سوء العذاب. وعندئذ يصاب بالإحباط واليأس الذي عبّرنا عنه هنا بالاغتراب السياسي. يقول الصافي:

الشعبُ ثارَ فارتَقتْ أسافلٌ ... والبحرُ إن هاجَ طَفا فيهِ الزبَدْ
كم في هياجِ البحر خالي صدفٍ ... عَلا وذو اللؤلؤِ في القَعْرِ رَكَدْ
تاللهِ ما أعْظَمَها مِن خَيبةٍ ... نحنُ زَرَعْنا الزَّرْعَ والغيرُ حَصَدْ

(المعوش، ٢٠٠٦، ص٣٧٥)

ويقول محذّراً الشعب من الاستسلام للدعايات والإعلانات السياسية والتجارية التي سلبت لبّ الناس وأضلّت كثيراً من الناس:

لا تقربوا أيّ إعلان يلوح لكم ... فإنّ في طيّهِ مكراً لمحتالِ
فالناسُ قد أفسَدَ الإعلانُ عَيشَهُمُ ... إذ صَدَّقُوا كلَّ مكارٍ ودجّال

(الصافي النجفي، ١٩٧٧، ص٤٢١)

ويبلغ اغترابه غايته عندما يبدي يأسه من إصلاح الشعب، فالحكومة عنده أنموذج مصغّر وبارز للشعب، «وكيفما تكونوا يُولَّ عليكم»:

دافِعِ الشعبَ بالحكومةِ إنْ يظلمْك ... وادفعْ بالشعبِ ظلمَ الحكومة
واحذر الكلَّ فالحكومةُ بنتُ الشعب ... خُلقاً والشعبُ أمٌّ ظَلومة
إنّ ظلمَ الشعوبِ سَوّى الحكومات ... وأنْشى لنا الطقوسَ القديمة
فترى الشعبَ للحكومةِ لا يحتاجُ ... لو كان ذا قلوبٍ رحيمة
وكلا ذيْنِ كالسِّلاحَيْنِ مازالا ... معاً في تَقارُعٍ وخُصومة
فالحكوماتُ مثلُ أشواك سمٍّ ... أنبتَتْها أرضُ الشعوبِ الوخيمة
أصْلِحُوا خُلقَكم لتُلْغى الحكوماتُ ... وعِيشُوا ذوي قلوبٍ سليمة

(المعوش، ٢٠٠٦، ص٣٧٩)

وبساطة شعره أجلى من أن تفتقر إلى إيضاح أو تعليق، فالمعنى واضح لا يحتاج إلى تفسير.

وفي نهاية المطاف يعزّ علينا أن نحرم القارئ اللبيب من مقطوعة شعرية بيّن الصافي فيها أنواع الغربة التي كان يعانيها:

وجرّبتُ أنواعَ التغرُّبِ كلَّها ... فَمِنْ غُربةٍ في الدارِ والقومِ والعُمْرِ
إلى غربةٍ في الزيّ والذوقِ والهوى ... إلى غُربةٍ في الخُلقِ والدينِ والكفْرِ

فأبصرتُ طعمَ الكلِّ مُرّاً وقاسياً ولم أرَ أقسى قطُّ من غربة الفكرِ
ومِن أينَ ألقى لي قريباً لفكرَتي قريبَ حِجىً حَتى بعُشْرٍ مِن العُشْرِ؟!
لقد غَرَّهُم بي ظاهرٌ مُشْبِهٌ لهم وزادوا غروراً عندما اكتشفوا سرّي
ليبتعدوا إذ ليسَ أرضي أرضَهم ولا حقلُهم حقلي ولا بذرُهم بذري
سأبقى غريبَ الفكرِ حَتى يلوحَ لي غداً شاعرٌ يأتي بما قلت في شعري

(الصافي النجفي، ١٩٧٧، ص١١)

كيف عوّض الصافي النجفي عن اغترابه؟

غالباً ما تشير الدراسات المعنيّة بالاغتراب إلى بعض ردود الفعل المترتّبة على هذه الظاهرة، يبديها الفرد المغترب إمّا عن دراية أو لا وعي. وفي دراسات الاغتراب الأدبي غالباً ما يشار إلى ردود الفعل التالية كتعويض طبيعي عن اغتراب الشاعر أو الأديب: اللجوء إلى الطبيعة والابتعاد عن المدن، والإمعان في الرمزية والإسراف في الغموض المعنوي، وحبّ العودة إلى عهود الطفولة، واستدعاء الشخصيات التراثية والأسطورية، والتغنّي بأمجاد الماضي السحيق، وبناء المدينة الفاضلة، والسعي لاستعطاف الآخرين من خلال الإسراف في إبداء الحزن والكآبة وما إلى ذلك من ردود فعل أخرى (علاّم، ١٩٨٤، صص٨٤-١١٢).

وأمّا أحمد الصافي النجفي فقد لجأ إلى الطبيعة وأوضح ذلك بشكل جليّ في شعره:

قصدتُ الطبيعةَ مُستَنجِداً بها هارباً من جميع البشرْ

(الصافي النجفي، دون تا، ص١٢٨)

ولجأ كذلك إلى استدعاء شخصيات تاريخية في شعره والسعي في إحيائها، كشخصية المتنبّي وشخصية أبي العلاء المعري، إذ كثيراً ما كان يعقد الشبه بينه وبين المعرّي في بيان غربته وغربة أفكاره:

طافَ المعريُّ في عكازه سَحرا يدعو أيا خالقي هبْ قومَيَ البصرا
إنّي وقومي كلانا خابطان دجىً لكنّني بالعمى وسط الظلام أرى

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ ب، ص٣٥)

وكان الصافي يهزأ من أولئك الذين أقاموا مهرجاناً لتكريم شخصية المعرّي ويعتقد أنّه لو بُعث لعاد يقاسي محبساً لم يذقه طول حياته:

أبْعَدُ الخلقِ عن سبيل المعرّي معشرٌ قد دُعُوا إلى مهرجانه
مَن نأى عنهم المعرّيُّ روحاً أقبلوا يحتفون في عرفانه

صـــاحبُ المحبســـينِ لـــو عـــادَ قاســـى محبســـاً لم يذقـــه طـــول زمانِـــه

(الصافي النجفي، ١٩٨٣ب، صص٢٠-٢١)

وعوّض الشاعر كذلك عن تلك الغربة باستحضار عهود الصبا كما رأينا في اغترابيه الزماني والإخواني، لكنّ أهمّ ما عوّض الصافي به عن اغترابه، هو إنشاده للشعر فلقد كان ينظر إلى نتاجه الشعري الغزيز نظرة الأب الحنون ويدعو دواوين شعره بالأبناء الذين ألفهم وألفوه، والذين سيخلّدون ذكره ويناغونه في وحدته:

لـــديّ مـــن الأولاد عشـــرٌ وأربـــعٌ دواويـــنُ أشـــعارٍ توافَـــدْنَ أبكـــارا

ســـأخلدُ في شـــعري الولـــودِ، فإنّمـــا دواويـــن أشـــعاري تولـــد أشـــعارا

(الصافي النجفي، ١٩٧٧، ص٣٦)

النتيجة

١. للاغتراب أنواع عديدة تعود أسبابها إلى عدّة عوامل منها: التفتّت الاجتماعي، وأزمة المجتمع المدني، وتسلط الأنظمة الاجتماعية القسرية، والاستغلال الطبقي، والتبعية والسيطرة الخارجية على مقدّرات الشعوب.

٢. تظهر حالات الاغتراب في أنواع مختلفة؛ سياسية واجتماعية، ومكانية، وزمانية، واقتصادية وما إلى ذلك من أمور.

٣. عاش الصافي وبحسب ما اتّسم به شعره كافّة أنواع الاغتراب، وذاق مرارتها بشدّة فكان شعره صدى لغربته. وقد تطرّقنا إلى ما ظفرنا به في طيّات دواوينه، وأعرضنا عمّا لم يكن يشغل حيّزاً وسيعاً في شعره. وكان من أجلى أنواع الاغتراب لديه الاغتراب الاجتماعي والاغتراب الزماني لأنّهما يحتلّان مساحة واسعة من دواوينه الشعرية الكثر.

٤. إنّ شعر أحمد الصافي النجفي وإن عالج موضوعات شتى من الحياة الإنسانية، إلاّ أنّه يحكي تأملاته الفردية ويعكس جانباً وسيعاً من آماله وآلامه، ويمكن عَدُّهُ من أرقى نماذج الشعر الذاتي والوجداني.

٥. يعدّ الاغتراب المكاني واحداً من أنواع الاغتراب المألوفة في شعر كثير من الشعراء، إلاّ أنّها لم تكن حادّة عند الصافي النجفي فلم يبدِ رغبة ملحّة في العودة إلى

مسقط رأسه وذلك لكي ينأى عن أخيه الذي كان يضايقه في نمط حياته، وللفرار من بيئته التي لم يكن يشعر بانتماء حقيقي لها.

٦. ينفرد الصافي عن سائر الشعراء باغترابه في الزيّ والملبس، وقد كان لزيّه الغريب صدى واسع في شعره.

٧. يعوّض المغتربون عن غربتهم باللجوء إلى ما يجدون سلواهم فيه، وهكذا أيضاً هو دأب الصافي النجفي إذ عوّض عن غربته بإنشاد الشعر واعتقاده أنّ شعره يضاهي شعر الفطاحل من شعراء الأدب العربي قديمه وحديثه بل ويفوقهم.

المصادر والمراجع

١. إبراهيم، عبد العزيز (١٩٨٨م). *لامية العرب للشنفرى*. بغداد: دار الشؤون الثقافية.

٢. ابن منظور، محمد بن مكرم (دون تا). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.

٣. اشكوري، سيد عدنان (١٣٧٧ش). *أحمد الصافي النجفي؛ حياته، شعره، آثاره وآراؤه الفلسفية والاجتماعية والسياسية*. رسالة لنيل درجة الماجستير، بإشراف محمّد علي آذرشب، جامعة طهران.

٤. الأصبهاني، أبو الفرج علي (١٤١٥هـ). *الأغاني*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٥. أنيس، إبراهيم؛ وآخرون (دون تا). *المعجم الوسيط*. إسطنبول: المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع.

٦. برزگران، محسن (١٣٧٠ش). *بررسي پديده اليناسيون در انديشه متفكران غربي*. رسالة الماجستير، بإشراف رضا قلي نظام مافي، طهران: جامعة الإمام الصادق عليه السلام.

٧. البرقوقي، عبدالرحمن (٢٠٠٦م). *شرح ديوان المتنبّي*. بمراجعة يوسف البقاعي. بيروت: دار الكتاب العربي.

٨. بركات، حليم (٢٠٠٦م). *الاغتراب في الثقافة العربية؛ متاهات الإنسان بين الحلم والواقع*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

٩. برهومي، خليل (١٩٩٣م). *أحمد الصافي النجفي شاعر الغربة والألم*. بيروت: دار الكتب العلمية.

١٠. البستاني، فؤاد أفرام (١٩٩٣م). *المجاني الحديثة عن مجاني الأب شيخو*. ط٤، بيروت: دار المشرق.

١١. الجاحظ، عمرو بن بحر (١٩٨٢م). *الحنين إلى الأوطان*. ط٢، بيروت: دار الرائد العربي.

١٢. الجبوري، يحيى (٢٠٠٨م). *الحنين والغربة في الشعر العربي*. عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.

١٣. الخاقاني، علي (١٩٥٤م). *شعراء الغري*. النجف الأشرف: المطبعة الحيدرية.

١٤. الخضراء الجيوسي، سلمى (٢٠٠٧م). *الاتجاهات والحركات في الشعر العربي المعاصر*. ترجمة الدكتور عبد الواحد لؤلؤة، ط٣، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

١٥. خليف، فتح الله (١٩٧٩م). *الاغتراب في الإسلام*. مجلة عالم الفكر، المجلد١٠، العدد١، الكويت.

١٦. الخليلي، جعفر (٢٠٠٩م). *هكذا عرفتهم*. بيروت: دار المحجّة البيضاء.

١٧. الخياط، جلال (١٩٧٠م). *الشعر العراقي الحديث؛ مرحلة وتطوّر*. بيروت: دار صادر.
١٨. دواليبي، أحمد (١٩٩٩م). *مظاهر الغربة النفسية في الشعر الأموي*. أطروحة دكتوراه، بإشراف رياض عوابده، جامعة دمشق.
١٩. زامل، صالح (٢٠٠٣م). *تحوّل المثال؛ دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبّي*. بيروت: المؤسّسة العربية للدراسات والنشر.
٢٠. شاخت، ريتشارد (١٩٨٠م). *الاغتراب*. ترجمة كامل يوسف حسين، بيروت: المؤسّسة العربية للدراسات والنشر.
٢١. شرارة، عبد اللطيف (١٩٨١م). *الصافي*. بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر.
٢٢. شمس الدين، محمّد مهدي (١٩٧٥م). *نظرة الإسلام إلى الأسرة في مجتمع متطوّر*. بيروت: مجلة الفكر الإسلامي، السنة ٦، العدد٥، آيار.
٢٣. الصافي النجفي، أحمد (١٩٥٢م). *شرر*. ط٢، بيروت: دار العلم للملايين.
٢٤. ـــــــــــــــ (١٩٦١م). *الأغوار*. ط٢، بيروت: دار العلم للملايين.
٢٥. ـــــــــــــــ (١٩٦٢م). *الشلال*. بيروت: دار العلم للملايين.
٢٦. ـــــــــــــــ (١٩٧٧م). *المجموعة الكاملة لأشعار أحمد الصافي النجفي غير المنشورة*. بإشراف جلال الخياط، بغداد: وزارة الثقافة والفنون.
٢٧. ـــــــــــــــ (١٩٨٣ أ). *أشعة ملوّنة*. ط٤، بيروت: مكتبة المعارف.
٢٨. ـــــــــــــــ (١٩٨٣ ب). *اللفحات*. ط٣، بيروت: مكتبة المعارف.
٢٩. ـــــــــــــــ (دون تا). *التيار*. دمشق: دار ومطبعة اليقظة العربية.
٣٠. الصالح، صبحي (دون تا). *شرح نهج البلاغة*. قم: مؤسسة دار الهجرة.
٣١. العبد الله، يحيى (٢٠٠٥م). *الاغتراب؛ دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية*. بيروت: المؤسّسة العربية للدراسات والنشر.
٣٢. علاّم، منى (١٩٨٤م). *مظاهر الاغتراب لدى أعلام الشعر العربي المعاصر*. رسالة الماجستير، بإشراف رياض عوابدة، جامعة دمشق.
٣٣. محبوبة، جعفر (١٩٨٦م) *ماضي النجف وحاضرها*. ط٢، بيروت: دار الأضواء.
٣٤. المعوش، سالم (٢٠٠٦م). *أحمد الصافي النجفي؛ حياته من شعره*. بيروت: مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع.